الباب الرابع

الحسبة فى عصر الرسول ﷺ
والخلفاء الراشدين والتابعين

الفصل الأول : الحسبة في عصر الرسول ﷺ

الفصل الثانى : الحسبة في عصر الصحابة والخلفاء الراشدين

الفصل الثالث : الحسبة في عصر التابعين

الفصل الأول

الحسبة في عصر الرسول ﷺ

النبي ﷺ هو الموصوف بأنه سوف يقوم بالحسبة لأنها من أوصافه كما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالي: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ) هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة[2].

لقد بدأت الحسبة في عهد النبي ﷺ بشكل فردي تطوعي لا تديره ولاية ولا يتم عن طريق تنظيم معين فالحسبة كغيرها من الاعمال وخطط الحكومة النبوية في المدينة النبوية وفي بداية تأسيسها تدار بشكل فردي ، وهذا شيء بدهي لكيان يتشكل ودولة تؤسس، فبالحسبة بدأ نظام الحسبة خاصة وإن نظام الحسبة لا ترتبط بنشوء الدولة بل مارسها المسلمون منذ فجر الدعوة الإسلامية[3] على وحي من النصوص التى جاءت تحث على القيام بها ذلك لأن الحسبة من الامور المهمة والضرورية لأي مجتمع يتطلع إلي أن يسود بين أفراده الصلح والفضيلة إذ بدونها – أي الحسبة – لا يمكن أن يحافظ على تطبيق شرائع الإسلام بين أفراد الأمة .

(وعلي هذا فإن وجودها لا يتوقف على قيام الدولة ذات الكيان السياسي . وإنما الحسبة توجد أينما وجد مسلمان فأكثر ، لأنها

---

(1) سورة الأعراف، آية (١٥٧) .

(2) تفسير ابن كثير ٢٨٢/٢ .

(3) هموم المثقفين في العالم الإسلامي، محمد كمال الدين إمام، ص ٩٧ .

النصيحة . والنصيحة بين المسلمين مطلوبة ومأمور بها شرعاً ألم يقل ﷺ: " الدين النصيحة ... الحديث "[1] ويقول ﷺ: " المؤمن مرآة أخيه "[2] أي أن المؤمن يري أخطاءه من خلال نصح أخيه له . وهذه هي عين الحسبة .

البعض يرجع نشأة الحسبة إلي العهد الأموي ، وفريق آخر يرجع ذلك إلي بداية العهد العباسي ، وثالث يؤكد أن الحسبة بدات مع بداية التاريخ الإسلامي ومنذ قيام دولة الإسلام في المدينة النبوية وها ما نميل إليه . فإن الاحتساب انبثق من أول نص شرعي جاء يأمر بالمعروف وينهي عن وجود المنكر . الذين قالوا بالرأيين السابقين يقصدون بداية قيام ولاية الحسبة كولاية سلطانية رسمية تتولي إدارة عمل الحسبة داخل الدولة الإسلامية . وإذا كان ذلك فهي فعلاً لم تقم في عهده ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين وإنما قامت بعد ذلك .

وبهذا أكون قد وفقت بين الأقوال الثلاثة وعلي ما تقدم أؤكد القول بأن الحسبة بدأت مع بداية نزول النصوص التي تحث علي القيام بالاحتساب بين المسلمين وتم ذلك مع بداية دولة الإسلام في المدينة النبوية على يد رسول الله ﷺ. ولذا نجد أنه عندما ظهرت مخالفات كثيرة أراد الرسول ﷺ أن يعالج الحالة بحكمه وبنظام، ويظهر ذلك من خلال تكليفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سوق المدينة ولسعيد بن العاص رضي الله عنه علي سوق مكة وهذا دليل على نهجه السليم ﷺ في جعل الأمور تسير في إطار الشرع ومبادئ الدين والاخلاق .

وكان ﷺ قد بدا ذلك بالحسبة بنفسه قولا وعملا فمن حسبته الفعلية أنه مر يوماً على سوق المدينة فوجد صاحب طعام يبيع وكان قد أخفي الطعام المبتل بالماء داخل صبرة فمد يده ﷺ إلي الصبرة وأدخلها في وسطها وقد يكون شك في غش هذا الرجل أو أنه أوحي إليه فلما أدخل

---

(1) رواه مسلم (٤٧/١) كتاب الإيمان حديث ٥٥.
(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٦٣٢/٢ .

يده في وسط الصبرة وجد بللا قال ﷺ: " ما هذا يا صاحب الطعام ؟" قال : لقد أصابته السماء يارسول الله – أي نزل عليه المطر – قال ﷺ: " أفلا جعلته في أعلي الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا "[1].

وللنبي ﷺ صور كثرة من صور الاحتساب تارة يقوم بالاحتساب بنفسه وتارة يعهد به إلي آخرين [2].

وقد أورد فضل إلهي ظهير في كتابه " الحسبة في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم " أمثلة مفصلة لاحتساب الرسول ﷺ بنفسه وما عهد لغيره به حيث احتسب في مجالات عديدة نذكر منها .

قيامه بالاحتساب بنفسه وهي صفة من صفات الرسول ﷺ، قال تعالي: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾** [3].

وكان النبي ﷺ كما وصفه ربه تعالي آمراً بالمعروف إذا رآه متروكاً، ناهياً عن المنكر إذا وجده مفعولا، ولم يقتصر احتسابه على جانب من الجوانب الحيوية بل شمل جميع شئون الحياة . ونضرب أمثلة من قيامه بالحسبة بنفسه .

١- احتسابه في مجال اللباس :

من احتسابه في مجال اللباس أنه أمر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما برفع الإزار فقد روي الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما

---

(1) رواه مسلم ٩٩/١ كتاب الإيمان حديث ١٠١ .

(2) انظرعلى بن حسن بن على القرني، الحسبة في الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص ٤٩٣ – ٤٩٥ .

(3) سورة الأعراف، الآية (١٥٧) .

قال : دخلت على النبي ﷺ وعلي إزار يتقعقع (يصوت عند التحريك)، فقال: " من هذا ؟" قلت عبد الله بن عمر قال: "إذا أنت عبد الله فارفع إزارك " فرفعت إزاري الى الساقين، فلم تزل إزرته حتى مات[1].

٢- في مجال الزينة :

ومنه أنه أنكر على رجل كان قد لبس خاتما من ذهب ، فقد روي الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأي خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: يعمد أحدكم إلي جمرة من نار فيجعلها في يده " فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك، انتفع به، قال لا والله ! لا آخذه أبداً، وقد طرحه رسول الله ﷺ (صحيح مسلم ١٦٥٤/٣/ رقم ٢٠٩٠ باب التحريم خاتم الذهب على الرجال) .

٣- احتسابه فيما يتعلق بحقوق المماليك :

ومن هذا انه انكر على ابي ذر رضي الله عنه قال : انى سابيت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبي ﷺ: " يا أبا ذر أعبرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفونهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم "[2].

٤- احتسابه في مجال السوق :

وقد تقدم كيف أنكر على الذي يجعل الطعام الذي اصابته السماء من تحت وقال " من غشنا فليس منا ..... الحديث " أو كما قال ﷺ.

٥- احتسابه فيما يتعلق بآداب المسجد :

ومن ذلك انه كان يامر باخراج الرجل الذي كان يجد ريح الثوم أو البصل منه من المسجد فقد روي الإمام احمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال فى خطبته يوم الجمعة : أيها الناس ! تأكلون من

---

(1) المسند: رقم الحديث ٦٢٦٣، ٩٣/٩-٩٤ .

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية – رقم الحديث ٨٤/٣٠،١ .

شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين، هذا الثوم والبصل وأيم الله! لقد كنت أري نبي الله ﷺ يجد ريحهما من الرجل فيأمر فيؤخذ بيده فيخرج به من المسجد حتى يؤتي به البقيع . فمن أكلهما فليمتهما طبخاً[1].

٦- احتسابه في مجال العبادة :

ومنه أنه زجر اصحابه الذين مسحوا أرجلهم في الوضوء بدل غسلها. فقد روي الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : تخلف النبي ﷺ عنا فى سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقنا العصر (أى أدركنا العصر) فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا ، فنادي بأعلي صوته: " ويل للأعقاب من النار " مرتين أو ثلاثا[2].

٧- احتسابه فيما يخص العقيدة :

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا قال للنبي ﷺ: " ما شاء الله وشئت " فقال له رسول الله ﷺ: " أجعلني والله عدلا ؟ (بمعني المثل) بل ما شاء الله وحده "[3].

فقد روي الإمام البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكه يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: " **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** "[4].

هناك أمثلة تدل على ان الرسول ﷺ أسند القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غيره ونضرب أمثله على ذلك بما يلي :

روي الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " كنا في زمان رسول الله ﷺ نبتاع الطعام فيبعث علينا من يأمرنا بانتقاله من المكان الذي ابتعناه فيه الى مكان سواه قبل ان نبيعه "[5].

---

(1) المسند، رقم الحديث ٨٩، ١٩٢-١٩٣م .

(2) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب غسيل الرجلين ولا يمسح على القدمين – رقم الحديث ١٦٣،١ / ٢٦٥ .

(3) المسند – رقم الحديث ١٨٣٩، ٢٥٣/٣ وقال الشيخ أحمد محمد شاكر عنه "إسناده صحيح" (تعليقات الشيخ أحمد محمد شاكر على المسند ٢٥٣/٣) .

(4) سورة سبأ: الآية ٤٩.

(5) صحيح مسلم – كتاب البيوع، باب بطلان البيع قبل القبض، رقم الحديث ١٥٢٧ ،١١٦٠/٣.

ومنهما أنه ﷺ أمر على بن ابي طالب رضي الله عنه بكسر الأوثان، وتسوية القبور وتلطيخ الصور . فقد روي الإمام أحمد عن على رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في جنازة ، فقال: أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنا إلا كسره ولا قبرا إلا سواه، ولا صورة إلا لطخها؟" لطخها من لطخ أى لوث، يقال: لطخ ثوبه بالمداد وغيره[1] فقال رجل أنا يا رسول الله!، فانطلق، فهاب أهل المدينة، فرجع فقال على: أنا أنطلق يا رسول الله قال:" فانطلق". فانطلق ثم رجع، فقال يا رسول الله لم أدع بها وثنا إلا كسرته، ولا قبرا إلا سويته ولا صورة إلا لطختها " ثم قال رسول الله ﷺ: " من عاد لصنع شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"[2].

أورد هذه الأمثلة الدكتور فضل إلهي[3].

❖❖❖❖❖

(1) انظر المعجم الوسيط ماده "لطخ" ص ٨٢٥ .

(2) المسند رقم الحديث ٦٥٧،٢/٦٨-٦٩ .

(3) انظر فضل الهي ، الحسبة فى العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، الطبعة الاولي إدارة ترجمان الإسلام ، ١٩٩٠م ، ص ٦-١٤ .

الفصل الثانى

الحسبة في عصر الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

لا شك أن الصحابة كانوا يتأسون بسيرة الرسول ﷺ وخلقة وسلوكه ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . قال تعالي فى شانهم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [1]

يقول الإمام أبو بكر الجصاص في تفسيره: " وهذه صفة المهاجرين لأنهم هم الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق فاخبر تعالي أنه إن مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وهو صفة الخلفاء الراشدين الذين مكنهم الله في الأرض وهم أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم [2].

إن الخلفاء الراشدين وهم خيرة الصحابة وهم امتداد للعهد النبوي في كثير من جوانب الحكم والإدارة . فالعهدان معا هما ما اصطلح على تسميته عند كثير من أهل العلم والتاريخ بالصدر الأول من التاريخ الإسلامي .

وعهد الخلفاء الراشدين وان وجد فيه بعض التطوير والتغيير لنظم الإدارة في جوانب أخري لاسيما في منتصف خلافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الخلفاء الراشدين، حيث استخدمت بعض الدواوين ونظمت شئون الحكم للمقاطعات والولايات فى الدولة

---

(1) سورة الحج، الآيات (٤٠-٤١) .

(2) أحكام القرآن ٢٤٦/٣ .

الإسلامية وجعل على رأس كل ولاية أو مقاطعة أمير ينوب عن الخليفة فى كثير من شئون الحكم والإدارة إلا انه فيما يتعلق بالحسبة ظل الأمر يسير على النمط نفسه الذي كانت تسير عليه الحسبة في عهده ﷺ فلم تنشأ لها ولاية تتولي إدارة شئون الحسبة وتأخذ الاسم نفسه الذي عرفت به فيما بعد ، بل كان يسمي من يقوم بعملية الاحتساب بين الناس لاسيما إذا كان مكلفا من قبل الخليفة (عاملاً) سواء كانت حسبته في السوق أو في مراقبة مسائل اجتماعية أخري تستدعي الاحتساب[1].

يتناول الباحث فى هذا المبحث الاحتساب على عهد الخلفاء الراشدين في أولا أبو بكر وثانياً عمر بن الخطاب وثالثاً عثمان بن عفان ورابعاً على بن أبي طالب رضي الله عنهم . وذلك بالتعرض للحسبة في عهد كل واحد منهم .

أولاً : الحسبة في عصر أبو بكر الصديق ﷺ :

(١١- ١٣ هـ / ٦٣٢- ٦٣٤م) :

على الرغم من قصر فترة خلافة أبي بكر الصديق ﷺ إلا أن ما قام به فى هذه الفترة القصيرة هو عمل عظيم يسجل له فى الخالدين الذين حفظوا للإسلام عزه وسؤدده وانتشاره فكان في رأس كل أعماله موقفه الصلب القوي من حروب الردة إذ جعل منه أعظم المحتسبين في التاريخ الإسلامي، فلولا توفيق الله أولا ثم ذلك الموقف الذي لم يرضخ فيه لبعض آراء الصحابة بان لا يقاتل المرتدين لما قامت للإسلام بعد ذلك قائمة وكانت تلك الردة بداية سوسة تنخر في عظم الأمة حتى تقضي على دينها ولكن بقوته في الحق وقف وقفة مشهورة في وجة تيار الهدم وحاربهم وألزمهم الحق بالقوة وقال قولته المشهورة " والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه "[2].

---

(1) على بن حسن بن على القرني، الحسبة فى الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص ٤٩٩ .

(2) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله – رقم الحديث ٣٢ .

وقد ظهر الارتداد على ثلاث صور: الأولي: الامتناع عن أداء الزكاة. والثانية: إدعاء النبوة. والثالثة: الارتداد مطلقاً[1].

وكانت فتنه عمياء تلك التى أصابت الإسلام والمسلمين ولكن الله قيض لها عزيمة أبى بكر الصديق الذي كان يدعو إلى المعروف وينهي عن المنكر. وكانت حالة مزرية تلك التى أصابتهم.

لا يظن أحد أن ما ذكر من جهاد الصديق ﷺ وأصحابه في مقاومة فتنة الارتداد لا يدخل في تاريخ الاحتساب، وذلك لان الجهاد في سبيل الله داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد بين سلف هذه الأمة وخلفها. نقل الإمام الطبري قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالي: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾[2] (تأمرون بالمعروف): أن يشهدوا أن لا اله إلا الله والإقرار بما انزل الله وتقاتلوهم عليه. " و لا اله إلا الله هو أعظم المعروف، وتنهون عن المنكر، والمنكر هو التكذيب، وهو أنكر المنكر "[3].

يقول الإمام الرازي أثناء تفسيره قوله تعالي: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [4] " رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورئيسه الجهاد "[5].

ويقول الإمام القرطبي أثناء تفسيره قوله تعالي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ

---

(1) على بن حسن بن على القرني، الحسبة فى الماضي والحاضر، ج١، مرجع سابق، ص٥٠٠.
(2) سورة آل عمران، الآية (١١٠).
(3) تفسير الطبري ١٠٥/٧.
(4) سورة التوبة، الآية (١١٢).
(5) التفسير الكبير ٢٠٥/١٦.

وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّـهُ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وقوله تعالي: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّـهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾[2] فدل على ان أخص أوصاف المؤمنين الآمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسها الدعوة إلي الإسلام والقتال "[3].

خلاصة القول أن جهاد الصديق ﷺ وأصحابه لقطع دابر الارتداد من صميم الاحتساب بل هو في قمته [4] ولأبي بكر الصديق ﷺ أماكن كثيرة يمارس فيها الحسبة بنفسه أو أناب غيره لكي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر .

أبو بكر ﷺ لو لم يكن إلا موقفه ﷺ من حروب الردة لكفاه في شأن الحسبة وللإسلام [5].

ثانياً : الحسبة في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(١٣- ٢٣هـ /٦٣٤- ٦٤٤م) :

سيدنا عمر ﷺ من السلف الصالح ومن الصحابة الكرام والذين لهم سوابق مهمة في أمور الاحتساب التى يمكن أن يستفيد منها دعاة الإصلاح في العصر الحديث ويمكن أن يستفيد منها الدعاة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[6].

إن جاء التأصيل للحسبة وقورنت جهود خلفاء وولاة المسلمين فيما يتعلق بالحسبة . جاءت حسبة عمر بن الخطاب ﷺ في طليعة تلك الجهود .

---

(1) سورة التوبه، الآية (٧١).

(2) سورة التوبة، الآية (٦٧).

(3) تفسير القرطبي، ٤٧/٤ .

(4) انظر فضل إلهي، الحسبة فى العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، الطبعة الأولي (باكستان: إدارة ترجمان الإسلام، ١٩٩٠م) ص ١٨-١٩.

(5) على بن حسن بن على القرني، الحسبة في الماضي والحاضر، مرجع سابق، ص ٥٠٢.

(6) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ط ١(المنصورة: دار الوفاء، ١٩٩٢) ص ٤١٥ بتصرف .

فعمر الذي فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل وجعل إسلامه عزاً للإسلام والمسلمين، كان له دور بارز وعظيم في هذا الجانب من الجوانب التى تهتم بها الحكومة الإسلامية. بل كانت له جهود ومساهمات فيما يتعلق بالاحتساب في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق. حيث ولاه الرسول ﷺ أمر الاحتساب في سوق المدينة وهذا قبل توليه أمر المسلمين خليفة عليهم . فلما تولي الخلافة ظل يحتسب بنفسه مع إسناده أمر الاحتساب إلى غيره، ولذا روي عنه ﷺ أنه قال: حبب إلي من دنياكم ثلاث: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحد أقيم في الله)[1] حتي ظن البعض من شدة اهتمامه بالاحتساب واشتهاره بذلك خطأ أنه أول من قام بهذا الأمر كذلك[2].

وله أوجه كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يعرف بالاحتساب سوف أورد بعضها كنماذج [3].

١- احتسابه في مجال العبادات

٢- احتسابه في مجال التسويق

٣- احتسابه فيما يتعلق بآداب اللباس .

٤- احتسابه فيما يتعلق بالزينة .

٥- احتسابه فيما يتعلق بالخمر

٦- احتسابه على من قصر في حق الحيوانات .

٧- قيامه بالاحتساب وهو على فراش الموت[4].

وسوف أتناول اثنين من هذه المجالات بالشرح .

---

(1) انظر نصاب الاحتساب للسنامي، ص ١٩٢ .

(2) انظر صبح الأعشي للقلقشندي ٤٥٢/٥ .

(3) انظر على بن حسن على القرني، الحسبة في الماضي والحاضر، المجلد الثاني، ص٥٠٤ .

(4) انظر، الحسبة في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فضل إلهي، مرجع سابق، ص ٢٢- ص٢٦.

١- احتسابه في مجال العبادات :

مما ثبت عن احتسابه في مجال العبادات ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : دخل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ المسجد يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب في الناس، فقال عمر رضي الله عنه:" أية ساعة هذه؟ " فقال: " يا أمير المؤمنين ! انقلبت من السوق فسمعت النداء فما زدت على أن توضأت " فقال عمر: " والوضوء أيضاً ولقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل "[1].

٢- قيامه بالاحتساب وهو على فراش الموت :

ومما يدل على اهتمامه البالغ بالاحتساب أنه لم ينسه وهو على فراش الموت . فقد روي عمر بن ميمون أنه جاء شاب إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن طعن وعرف الناس أنه ميت ، فقال له أبشر يا أمير المؤمنين ببشري من الله لك ، ومن صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ثم شهادة . قال :" وددت أن ذلك كفاف ، لا لي ولا على " فلما أدبر ، فإذا إزاره يمس الأرض فقال : " ردوا على الغلام " قال :" يا ابن أخي ! أرفع ثوبك ، فإنه أبقي لثوبك وأتقي لربك ".

ومن عنايته الفائقة بالاحتساب في هذه الحالة أيضاً ما رواه المقدم ابن معد يكرب رضي الله عنه قال : لما أصيب عمر رضي الله عنه دخلت عليه حفصة – رضي الله عنها – فقالت – يا صاحب رسول الله ﷺ ويا أمير المؤمنين ". فقال عمر لابن عمر رضي الله عنهما:" يا عبد الله! أجلسني فلا صبر لي على ما أسمع فأسنده إلي صدره ، فقال لها : إني أحرج عليك بما لي من الحق أن تندبيني [2] بعد مجلسك هذا ، فأما عينك فلن أملكها[3].

---

(1) المسند – رقم الحديث ١٩٩،٢٤١.

(2) أحرج عليك: أحرج الشيء على فلان أي حرمه عليه، انظر المعجم الوسيط مادة أحرج ص ١٦٤.

(3) أن تندبني: من الندب: أن تذكر النائحة الميت بأحسن أوصافه وفعاله، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر مادة "ندب" ٣٤/٥.

عمر بن الخطاب ﷺ وقد طالت خلافته من سنة أربع وثلاثين وستمائة الى أربع وأربعين وستمائة أي حوالي عشرة أعوام كانت عامرة بتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما تقدم غيض من فيض وقليل من كثير قدمته نماذج فقط لجليل أعماله العامرة فرضي الله عنه وأرضاه .

ثالثاً : الحسبة في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه :

(٢٣- ٣٥هـ /٦٤٤- ٦٥٦م):

كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان المعروف بذي النورين يقوم بالاحتساب بنفسه كما أسنده إلي غيره [١].

سارت الحسبة في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ على الطريقة نفسها التى سارت عليها في عهد من سبقه من الخلفاء وقد أولي الخليفة الثالث عناية خاصة بالإشراف على مصالح المسلمين ومن ذلك ما يتعلق بالحسبة في الأسواق وغيرها ، وقد ذكر البلاذري أن من ولاته على السوق الحارث بن الحكم [٢]، ومن حسبته على ولاته الذين أمرهم على الأمصار أنه كتب إليهم في أول ولايته يقول : أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وأن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء إلا أن أعدل السيرة ، فعليكم أن تنظروا ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم ما لهم وتأخذون بما عليهم ثم العدو الذي تتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء[٣].

ومن هذا الاهتمام الذي يعطيه لأمر الاحتساب إسناده بعض أمور الاحتساب إلي غيره ومن ذلك تعينه لرجل من بني ليث لمنع الناس من طيران الحمام والرمي بالجلاقات . فقد ذكر الحافظ بن كثير رحمه

---

(1) انظر: فضل إلهي، الحسبة في عصر النبيﷺ وعصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، مرجع سابق ، ص٢٨.

(2) أنساب الأشراف للبلاذري، ٤٧/٥.

(3) تاريخ الأمم والملوك للطبري، ٤٤/٥.

الله أن أهل المدينة اتخذ بعضهم الحمام ورمي بعضهم بالجلاقات فوكل عثمان ﷺ رجلاً من بني ليث يتتبع ذلك فيقص الحمام ويكسر الجلاقات (جمع جلاق وهو البندق) جاء ذلك في كتاب البداية والنهاية ٢١٤/٧.

احتسب عثمان بن عفان ﷺ بنفسه في أمور عديدة نذكرها هنا بدون شرح ثم أتناول نماذج من ذلك بالشرح المفصل.

قام عثمان بن عفان بالاحتساب بنفسه فيما يلي :

١- إنكاره على لبس الثوب المعصفر .

٢- إنكاره على قاصدات العمرة والحج في العدة .

٣- أمره بذبح الحمام .

٤- احتسابه على اللعب بالنرد .

٥- إخراجه من يراه شراً أو يحمل سلاحاً في المدينة .

٦- أمره بتسوية القبور .

كما أسند عثمان ﷺ أمر الاحتساب إلي غيره .

ومن ذلك تعيينه رجلاً من بني ليث ليمنع الناس من طيران الحمام والرمي بالجلاقات كما تقدم .

فقد ذكر الحافظ ابن كثير أن أهل المدينة اتخذ بعضهم الحمام ، ورمي بعضهم بالجلاقات، فوكل عثمان بن عفان ﷺ رجلاً من بني ليث يتبع ذلك ، فيقص الحمام ويكسر الجلاقات .

ومن ذلك أيضاً ﷺ عين شخصاً لمنع الناس من شرب النبيذ الذي فيه سكر . فقد ذكر الإمام الطبري عن القاسم بن محمد عن ابيه أنه قال : حدث بين الناس النشو (السكر)، قال فأرسل عثمان ﷺ طائفاً يطوف عليهم بالعصا ، فمنعهم من ذلك . ثم اشتد ذلك فأخشي عثمان الحدود ونبأ (أخبر) ذلك عثمان وشكاه إلي الناس ، فاجتمعوا على أن يجلدوا في النبيذ ، فإخذ منهم نفر فجلدوا [1].

---

(1) تاريخ الطبري ٣٩٨٤

أتناول بالشرح نموذجين من نماذج احتساب عثمان بن عفان رضي الله عنه .

١- إنكاره على لبس الثوب المعصفر :

من احتسابه ﷺ أنه أنكر على محمد بن جعفر بن أبي طالب أنه لبس الثوب المعصفر. فقد روي الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قاله: راح عثمان ﷺ إلي مكة حاجاً ، ودخلت على محمد بن جعفر بن علي بن أبي طالب امراته ، فبات معها حتى أصبح ، غداً عليه ردع (لطخ واثر) الطيب وملفحة معصفرة مقدمة (مشبعة حمرة)، فأدرك الناس بملل (موقع) وقبل أن يروحوا فلما فرآه عثمان ﷺ انتهر واقفاً وقال : أتلبس المعصفر وقد نهي عنه رسول الله ﷺ.

٢- إخراجه من يراه على شر أو يحمل سلاحاً في المدينة المنورة.

ومن احتسابه أنه كان ينكر على من يراه على شر أو كان يحمل معه سلاحاً ويخرجه من المدينة المنورة .

فقد روي الإمام الطبري عن سالم بن عبد الله ﷺ قال: " وجعل عثمان لا يأخذ أحداً منهم على شر أو شهر سلاح ، عصا وما فوقها إلا سيره.

لقد كان لعثمان بن عفان دور واضح في الاحتساب مما كان له أثر بليغ في إشباعه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي آنذاك وهي صورة مشرقة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جدير بنا في هذه الأيام وجدير بالذين يولون أمر المسلمين التأسي بخلفاء صدر الإسلام في الاحتساب وإشاعته في المجتمع المعاصر حتى تعود الحياة سيرتها الاولي ويشيع فيها الطهر والنقاء[1].

(1) انظر: فضل إلهي، الحسبة في عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين ﷺ، ص٢٨-٣٠ .

رابعاً : الحسبة في عصر أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ : (٣٥- ٤٠هـ / ٦٥٦- ٦٦١م) :

في خلافة على بن أبي طالب ﷺ تواصلت الممارسة حيث الاهتمام بالسوق وبنظافته وحسن سير الأداء في معاملاته . وكان على ﷺ قد راقب الأسواق بنفسه أيام خلافته ودعا الناس أن لا يظلم بعضهم بعضاً ، وأن يبتعدوا عن الغش في الميزان ، وكان شديد على من يطيل يده بالأذي إلي الرعية وإلي أموال الدولة [1].

اهتمام على بن أبي طالب ﷺ قد تميز عن عهد سلفه عثمان بن عفان ﷺ يؤكد ذلك جهوده وصور الحسبة كثيرة في مقابل ما دون ذلك بعثمان بن عفان ﷺ. وعلي ﷺ قد باشر الحسبة بنفسه ويظهر لنا ذلك من الصور الحسبية ، كما كان يولي بعض من يثق فيهم ويختارهم لهذه المهمة الجليلة .

من أجلي صور احتسابه ﷺ اهتمامه بأمر عماله .. ذكر ابن كثير رحمه الله بعض كتبه التى كان يرسلها إلي عماله في الأمصار ومنها كتاب له إلي بعض عماله جاء فيه: (أما بعد فلا تطولن حجابك على رعايتك فإن الاحتجاب عنهم يقطع عنهم ما احتجبوا دونه فيضعف عندهم الكبير ويعظم عندهم الصغير ويقبح عندهم الحسن ويحسن عندهم القبيح ويشاب الحق بالباطل وإنما الوالي بشر لا يعرف ما يواري عنه الناس به من الأمور وليس على القوم سمات بشر لا يعرف ضروب الدق من الكذب فتحصن من الإدخال في الحقوق بين الحجاب فإنما أنت أحد الرجلين إنا امرؤ شحت نفسك بالبذل في الحق ففيما احتجابك من حق واجب عليك أن تعطيه وخلق كريم تسر به ؟ وإما مبتلي بالمنع والشح فما أسرع زوال نعمتك وما أسرع كف الناس عن مسائلتك إذا يئسوا من ذلك أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤنة فيه عليك من شكاية مظلمة

(1) خالد خليل الظاهر، نظام الحسبة، ط١ (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ١٩٩٧م).

أو طلب إنصاف في معاملة فانتفع بما وصفت لك واقتصر على حظك ورشدك إن شاء الله)[1].

وكتب الى كعب بن مالك عامله على الكوفة يقول: (فاستخلف على عملك وأخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة[2] كورة فتسألهم عن عمالهم وتنظر في سريتهم حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ثم ارجع إلى المقباذات (اسم كور ببغداد) فتولي معونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك واعلم أن الدنيا فانية وأن الآخرة آتية وأن عمل ابن أدم محفوظ عليه وأنك كجزي بما أسلفت وقادم على ما قدمت من خير فاصنع خيراً تجد خيراً)[3].

ولقد عني أمير المؤمنين على أبن أبي طالب ﷺ بأمر الحسبة والاحتساب فقام به بنفسه كما أسنده إلي غيره .

نورد فيما يلي قيامه بالحسبة بنفسه :

أولاً : قيام علي ﷺ بالاحتساب بنفسه :

لقد قام على بن أبي طالب ﷺ بالاحتساب في مجالات عديدة منها :

احتسابه فيما يتعلق باللباس والزينة والهيئة :

- ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير عن أبي مطر قال: (خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي "ارفع إزارك فإنه أبقي لثوبك، واتقي لك ، وخذ من شعرك إن كنت مسلماً)[4].
- ومنها أنه ﷺ أنكر على ابنته حينما رآها لابسة لؤلؤة مملوكة لبيت المال ظناً منه أنها سرقتها من بيت المال . فقد روي الإمام الطبري عن ابن أبي رافع – وكان خازناً لعلي ﷺ على بيت المال – أنه – قال: دخل علي ﷺ وقد زينت ابنته، فرأي عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ٨/٧.
(2) الكورة: المدينة، الصقع، والجمع كور .
(3) الخراج لأبي يوسف، ص١٢٨.
(4) البداية والنهاية، ٤/٨.

عرفها، فقال: (من أين لها هذه ؟ لله على أن أقطع يدها) قال: فلما رأيت جده في ذلك، قلت: (أنا) والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي ومن أين كانت تقدر لو لم أعطها !) فسكت .

احتسابة فى مجال السوق :

ومن المجالات التى كان يهتم بها بن أبي طالب ﷺ مجال السوق، فكان يمشي فيه ومعه درته يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر . فقد روي ابن سعد عن الحر بن جرموز عن أبيه قال: (رأيت علياً ﷺ وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان[1] إزار إلي نصف الساق، ورداء مشمر قريب منه، ومعه درة له، يمشي بها في الأسواق، ويأمرهم بتقوي الله وحسن البيع ويقول: (أوفوا الكيل والميزان). ويقول (لا تنفخوا اللحم)[2].

ومن أمثلة احتسابه في السوق ما ذكره الحافظ ابن كثير عن أبي مطر فيه " مشيت خلفه – أي خلف علي ﷺ – وهو مؤتزر بإزار، ومرتد برداء، ومعه الدرة كأنه أعرابي بدوي حتى انتهي إلي دار أبي معيط وهو يسوق الإبل فقال: " ثم أتي أصحاب التمر فإذا خادم – واحد الخدم غلاماً كان أو جارية – تبكي، فقال ما يبكيك ؟ قالت باعني هذا الرجل تمراً بدرهم فرده موالي، فأبي أن يقبله. فقال له علي: (خذ تمرك وأعطها درهماً فإنها ليست لها أمر) فدعه. ثم مر مجتازاً بأصحاب التمر فقال: (يا أصحاب التمر ! المسلمون، حتي انتهي إلي أصحاب السمك فقال (لأي يباع في سوقنا طافي) السمك الطافي هو الذي يموت في الماء ثم يعلو فوق وجهه .

أوردت كتب السيرة العديد من المواطن التى احتسب فيها على رضي الله عنه وما تقدم نماذج فقط توضيح كيف كان أمير المؤمنين علي ابن

---

(1) قطرتيان: قطري، ضرب من البرود فيه حمرة .

(2) لا تنفخوا اللحم: ينفخ بعض الجزارين في في بعض البلدان في أوراج الذبيحة كي تنفخ وتظهر مليئة، عن ذلك على ﷺ لما فيه من محاولة خداع الناس والله أعلم بالصواب – انظر تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين) ص ٦٤٥ .

أبي طالب يقوم بالاحتساب مما كان له أطيب الأثر في إصلاح مجتمع المدينة وكان كذلك يسند أمر الاحتساب إلي غيره . فقد روي الإمام مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب ﷺ: (ألا أبعثك ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً إلا سويته)[1].

هكذا كان علي بن أبي طالب ﷺ مستناً بسنه رسول الله ﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والآن المسلمون في أمس الحاجة إلي الاستنان بسنة من سلف من خلفاء رسول الله ﷺ حتى تعود أمة الإسلام إلي الإصلاح بفضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذلك الواجب الذي غاب ردحاً من الزمن ولا يزال غائباً .

❖❖❖❖❖

(1) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب الأمر بتسوية القبور – حديث رقم ٦٩٦، ٢/٦٦٦ .

الفصل الثالث
الحسبة في عصر التابعين
(عمر بن عبد العزيز نموذجاً)

لقد كان عهد التابعين[1] امتداداً لعهد الصحابة رضي الله عنهم، حيث أنهم اهتموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقاموا بالنصح لأنفسهم ولإخوانهم المسلمين .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو صمام الأمان للمجتمع الإسلامي من أي انحراف ، ومحاربة للمظاهر السالبة أولاً بأول ، فما استفحلت المنكرات إلا عندما خفت صوت الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

شهد عهد التابعين كثيراً من الأخيار الذين قاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن أبرز هؤلاء الذين أشعلوا مصابيح الحق بعدما أوشكت أن تنطفئ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، الذي سيكون نموذجاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر التابعين .

نسبه وميلاده :

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف. الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية[2] كان حسن الأخلاق والخلق، كامل العقل، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أواهاً منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين[3].

---

(1) التابعي: قال الخطيب البغدادي: التابعي من صحب الصحاب، وفي كلام الحاكم ما يقتضي إطلاق التابعي على من لقي الصحابي وروي عنه، وإن لم يصحبه. انظر الباحث شرح اختصار علوم الحديث، تاليف محمد علي أبو حمرزة، ص ٨٢.

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج ٥، ص ١١٤.

(3) المصدر نفسه، ص١٢٠.

اختلف المؤرخين في سنة ميلاده والراجح أنه ولد عام ٦١هـ ، وهو قول أكثر المؤرخين . ولأنه يؤيد ما ذكر أنه توفي وعمره أربعون سنه حيث توفي عام ١٠١هـ [١].

إقباله على العلم :

فقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح، زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب[٢].

ولايته على المدينة :

في ربيع الأول عام ٨٧هـ ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ . بذلك صار والياً علي الحجاز كلها ، واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط :

الشرط الأول :

أن يعمل في الناس بالحق والعدل ، ولا يظلم أحداً ، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال ، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة .

الشرط الثاني :

أن يسمح له بالحج في أول سنة ، لأن عمر في ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث :

أن يسمح له العطاء أن يخرجه للناس في المدينة . فوافق الوليد على هذه الشروط . وباشر عمر عمله بالمدينة وفرح به الناس فرحاً شديداً[٣].

إن هذه الشروط التي اشترطها عمر – رحمه الله – تدل على حبه للعدل والإنصاف وخوفه أن يجرفه التيار الذي جرف من قبله من الولاة .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير، ص ٦٧٦.

(2) المصدر نفسه، ص ٦٧٩.

(3) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص ٤١ ، ٤٢.

قيامه بالأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر :

لقد وجد عمر بن عبد العزيز اعوجاجاً كبيراً في سير الدولة الإسلامية خلال حكم بنى أمية، وهذا مما أرهق كاهله وألقي عليه تبعات كثيرة لابد من معالجتها . وقد نهض بهذه المهمة الكبيرة بصبر واحتساب . وبما أن الإصلاحات التى قام بها كثيرة سنورد نماذج من هذه الإصلاحات التى تقع في دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحسبة) .

١ – رده أمر الحكم إلي الشوري :

إن حكم المسلمين ليس بالتسلط والتكبر بل هو بالشوري والرضا من جماعة المسلمين بمن ولي عليهم. ولو كانت الشوري تترك لتركها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي ... قال تعالي: **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ....﴾** [1] مع هذا الأمر الواضح فإن بني أمية انحرفوا عن هذا المنهج وأخذوا الولاية قصراً وتسلطاً. فلما آل الأمر إلي عمر بن عبد العزيز أراد أن يعيد سيرة الدولة الإسلامية إلي دولة النبوة ودولة الخلفاء الراشدين فقد كان عمر مهموماً عندما عهد السلطان سليمان بن عبد الملك بالولاية لمن بعده في عهد مكتوب ومختوم بختمه، وذلك في حضور رجاء بن حيوة الكندي . كان عمر يخشي أن يكون سليمان عهد بالأمر بعده له . فعندما مات سليمان بن عبد الملك اجتمع الناس بأمر رجاء بن حيوة ليقرأ عليهم بما عهد به سليمان . قال رجاء: فأرسلت إلي كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا ففي مسجد دابق فقلت: بايعوا، قالوا : بايعنا مرة ونبايع أخري ! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمره به، ومن سمي في هذا الكتاب المختوم ، فبايعوا الثانية رجلاً . قال رجاء : فلما بايعوا بعد موت سليمان رأيت أني أحكمت الأمر ، قلت قوموا إلي

(1) سورة آل عمران، الآية (١٥٩) .

صاحبكم فقد مات . قالوا :إنا لله وإنا إليه راجعون . وقرأت عليهم الكتاب ، فلما انتهيت إلي ذكر عمر بن عبد العزيز . نادي هشام لا نبايعه أبداً . قال : قلت : أضرب عنقك ، قم فبايع . فقام يجر رجليه . قال رجاء : وأخذت بضبعي عمر فأجلسته على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه . فلما انتهي هشام إلي عمر قال : إنا لله وإن إليه راجعون ، أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك. قال: فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي لكراهتي به[1].

صعد عمر المنبر فقال في أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه : أيها الناس إني قد ابتليت بهذ الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم . فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فول أمرنا باليمن والبركة [2] رحم الله عمر فقد جعل الناس في حل من بيعته ورد الأمر إلي الشوري ولكن الناس لم يرضوا بغيره لمعرفتهم به . فيا ليت حكامنا في بلاد المسلمين ردوا أمر الحكم للشوري وجنبوا المسلمين المصادمات لتي تقع دائماً بسبب الحكم ، ولكن أصبح الحكم عندهم قهراً وجبراً لا تراعي فيه كرامة لأحد .

٢- عدم انصياعه للباطل ونصحه للوليد بن عبد الملك وسليمان :

إن من الصعب مواجهة حاكم من حكام بني أمية في أمر يريدونه ، ولكن عمر بن عبد العزيز بما عرف به من نصح وجرأة لا يمكن أن ينصاع لباطل ، فمما كان يؤلم عمر إطلاق يد أمراء بني أمية في قتل الناس بشبهة فقد ورد أن عمر دخل على الوليد فقال : يا أمير المؤمنين إن

---

(1) تاريخ الطبري (٧/٤٤٥)، (٥/٣٣٥-٣٣٨) .

(2) انظر الطبقات (٥/٣٤٠)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص ٣٥-٣٦.

عندي نصيحة فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك سلني عنها . قال : ما يمنعك عنها الآن ؟ قال : أنت أعلم .. فمكث أياماً . ثم قال : يا غلام من بالباب؟ فقيل له : ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز ، فقال : ادخلهن فدخل عليه . فقال : نصيحتك يا أبا حفص . فقال عمر : إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا ، وأنت المسؤل عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتي يكتب بذنبه ، ثم يشهد عليه . ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك . فقال : بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك . على بكتاب . فكتب إلي أمراء الأمصار كلهم فلم يخرج ذلك إلا الحجاج [1] فقد كان عمر رقيقاً بالمخالفين لبني أمية ويري نصحهم وحسبهم بدل قتلهم . كما ورد في قصة أحد الخوارج الذي أرسلة الحجاج للوليد وذلك ليبطل ما نصح به عمر بن عبد العزيز[2]. كذلك من مواقفه البارزة نصحه للوليد بن عبد الملك عندما أراد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد ويعهد بالأمر من بعده لابنه . لقد اعترض عمر على ذلك عندما طلب منه الوليد خلع سليمان قال له : يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقد واحدة ، فكيف نخلعه نتركك ؟ فغضب الوليد على عمر وحاول استخدام الشدة معه ، لعله يوافقه على ما أراد ، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب ، حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ، ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومال عنقه[3].

لقد دفع عمر – رحمة الله – ضريبة نصحه وحبه للعدل ، ومع كل هذا لم تلن قناته بل واجه سليمان بن عبد الملك بعد الوليد ، وأنكر عليه إنفاق المال في غير موضعه . ورد أن سليمان قدم المدينة ، فأعطي بها مالاً

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص ١١٩-١٢١.

(2) انظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ١١٩-١٢١ أثر العلماء في الحياة السياسية، ص١٦٤ .

(3) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٨-١٤٩) .

عظيماً فقال لعمر بن عبد العزيز : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغني غني، وتركت أهل الفقر بفقرهم[1].

كذلك أنكر على سليمان تحكيم كتاب أبيه عبد الملك . كلم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان: إن عبد الملك كتب في ذلك كتاباً منعهن ذلك ، فتركه يسيراً ثم راجعه ، فقال سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر ، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك . فقال له عمر: أبالمصحف دعوت يا أمير المؤمنين ؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم بكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضي الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر . فزجر سليمان أيوب . فقال عمر: إذا كان جهل فما حلمنا عنه[2] إن هذا من مواقف الجرأة التي تميز بها عمر ، لقد ظن سليمان أن كتاب أبيه لا ينقض ،ولكن بين له عمر الكتاب الذي لا ينقض ولا يبدل هو كتاب الله وليس ما درج عليه الآباء والاجداد .

٣- رد المظالم :

إن حكام بني أمية ارتكبوا كثيراً من الجور والظلم مما جعل عمر ابن عبد العزيز مضطراً إلي معالجة هذا المنكر ورد الحقوق إلي أهلها .

كان رد المظالم من أكثر الأمور التي أثارت حفيظة بني أمية على عمر – رحمه الله – وذلك أن عمر تتبع كل المظالم وعالجها بما في ذلك المخصصات والامتيازات التى كانت لبني أمية بغير وجه حق .

بدأ عمر بمعالجة المظالم ابتداء بنفسه . روي ابن سعد أنه عندما أراد عمر رد المظالم قال : إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي [3] وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين . فنظر إلي ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص ١٣١ .
(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص١٣١.
(3) الطبقات لابن سعد (٣٤١/٥) .

حتى نظر إلي فص خاتم . فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه [1] لقد رد عمر كل ما فيه شبهة من ماله وضياعه حتى أنه نزع الفضة التى كان يحلي بها سيفه وحلاه بالحديد [2] بعدما رد عمر ما يخصه، عطف بعد ذلك على رد مظالم بني أميه فقد رأي ما أذهله وهو أن أبناء عمه من الأمويين ادخلوا الكثير من مظاهر السلطان التى لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رغبتهم . ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التي تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضاً تلك السرادقات والحجرات والفرش والوضاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد، فوجئ بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها، فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بينه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها وضم ثمنها لبيت مال المسلمين [3].

لقد جرد عمر بني أميه من أموال وأملاك من شتي الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب ، جرد عمر بني أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة وردها إلي مكانها الصحيح ، مظالم وجوائر وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع ، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة ، بلغت في تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف [4].

---

(1) نفس المصدر، ص ٣٤١،٣٤٢ .
(2) نفس المصدر، ص ٣٥٥.
(3) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص ٢١٣ .
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص١١٥.

لقد ضج بنو أمية من هذه السياسة العدلية التى لم يعهدوها وحاولوا بشتي السبل اعتراض عمر ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل لأن عمر – رحمه الله – كان نظره إلي ما أمامه من مشاهد الآخرة وأهوالها، فهان عليه من سبقه . وقد توسلوا له بعمته فاطمة بنت مروان، حيث كانت لها مكانة في نفوس بني أمية، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته، والقي لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت عنهم خير غيرك. قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً شيئاً كان لهم فقالت: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره[1] لله در عمر فقد سجل هذا الموقف الصارم الذي لم يجامل فيه لأن الحق عنده هو الذي يجب أن يصان. لقد أحدث عمر – رحمه الله – انقلاباً كاملاً في الحياة العامة للناس، وأعاد ما اندثر من مآثر الإسلام وسنن الحق، كان يميت البدع ويحيي السنن. ونكتفي بما ذكرناه عن عمر من أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، واستقصاء أعمال عمر وأفعاله الراشدة يحتاج إلي سفر ضخم، وما أشرنا إليه إنما هو إشارة ببيان وليس إحاطة بمعصم . نسأل أن يقيض الله للأمة الإسلامية أمثال عمر حتى ينعم الجميع في ظلال الإسلام الوارفة بعبق الحرية والعدالة التي تجعل الجميع تحت معيار واحد (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[2].

مراسم تولية عمر بن عبد العزيز :

نذكر في أخر هذا المقال مراسم تولية عمر بن عبد العزيز لتكون نبراساً لمن يتولي أمر الدولة الإسلامية .

قال الإمام احمد بن حنبل " إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله "

---

(1) نفس المصدر، ص ١١٧.

(2) سورة الحجرات، الآية (١٣).

ونحن في هذه المقالة القصيرة نذكر بعض محاسن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . ونذكر علي وجه الخصوص مراسم توليته .إن سيرة عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه تعد مدرسة تربوية علي نمط فريد يحتاج لها الناس في هذا الزمن الأغبر. ويجد فيها المتعطشون إلي التقوي والخير والصلاح وأهل الاستقامة والورع والمثل العليا ما يروي غليلهم. ما أحوجنا في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على كل شيء في حياة الناس أن نستلهم مسيرة عظماء الإسلام من أمثال عمر بن عبد العزيز ونحاول أن نسير علي خطاهم .

لما دفن عمر بن عبد العزيز، سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هزة أو رجه فقال ما هذه؟ فقيل: هذه مواكب الخلافة يا أمير المؤمنين، قربت إليك لتركبها فقال مالي ولها، نحوها عني، قربوا إلي بغلتي. فركب بغلته . فجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال تنح عني مالي ولك، إنما أنا رجل من المسلمين فسأر وسار معه الناس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال: أيها الناس إني قد أبليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين. وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي . فاختاروا لأنفسكم. فصاحوا صيحة واحدة. قد اخترناك يا أمير ورضينا فلك أمرنا باليمين والبركة .

فلما رأي الأصوات، ورضي الناس به جميعاً، حمد الله وأثني عليه وصلي على النبي ﷺ فقال، أوصيكم بتقوي الله ، فإن تقوي الله عز وجل خلف فاعملوا لآخرتكم فإنه من عمل لآخرته، كفاه الله تبارك وتعالي دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت . وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم . فإنه هادم اللذات وأن هذه الأمة لم يختلف في ربها عز وجل ولا نبيها ﷺ ولا في كتابها. واختلف في الدرهم والدينار. وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا امنع أحداً حقاً ...

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: إيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصي الله فلا طاعه له، أطيعوني ما أطعت الله عز وجل، فإن عصيت الله فلا طاعة عليكم. ثم نزل فدخل، فأمر بالسفور فهتكت، والثياب التى كانت تبسط الخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين. ثم ذهب تبوأ مقيلاً. فأتاه ابنه عبد الملك بن عمر فقال يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟ قال أى بني أقيل، قال : تقيل ولا ترد المظالم، فقال أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم. فقال: يا أمير المؤمنين من لك أن تعيش إلي الظهر ؟ قال: ادن مني بني فدنا منه فالتزمه، وقبل بين عينيه، وقال الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني علي ديني، وخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فقام إليه ذمي " من أهل الذمة" من حمص أبيض الرأس واللحية فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل وقال وماذا ذاك : قال العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي والعباس جالس فقال يا عباس ما تقول ؟ قال أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد ابن عبد الملك وكتب لي بها سجلاً فقال عمر ما تقول يا ذمي ؟ قال يا أمير المؤمنين : أسالك كتاب الله عز وجل . فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك فاردد عليه يا عباس ضيعته فرد عليه فجعل لا يدع شيئاً مما كان في يديه وفي يدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة . فبلغ ذلك خطاب طويل نجده في كتب التاريخ والسير ورد عليه عمر بن عبد العزيز بحجج واضحة توضح سيرته ومسيرته في الإصلاح علي المنهج الإسلامي ..

وبعد هذه شذرات ونذر قليلة من سيرة عمر بن عبد العزيز كوال مسلم جاء خلفاً لخلفاء لم يسلكوا في الحكم قيم العدل والحرية ولكن جاء عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب مطبقاً المباديء

الإسلامية من أول يوم تولي فيه أمر المسلمين .نذكر بهذه السيرة والسريرة لأنها تتناسب الزمان والمكان. وذلك لنستفيد من هذا التاريخ المجيد ونستدعي تلك الأيام المشرقات لهذه الأيام المظلمات الظالمات وترد المظالم كما فعل عمر بن عبد العزيز ويكون لنا من ولاة الأمر من يسير سير عمر بن عبد العزيز وليعلم الناس أن الحكم أمانة وأنه يوم القيامة خزي وندامه إلا من أخذه بحقه . نرجو أن يقتدي الولاة بعمر بن عبد العزيز ذلك الوالي الذي يعد من زعماء الإصلاح بالمنهج الإسلامي الذي كان ولا يزال هو الأقدر علي إصلاح المجتمع [1].

❖❖❖❖❖

(1) صحيفة الحياة، العدد ٨٩٥، بتاريخ ٢٠٠٥/٩/٩م.